8

مغامرة في الجزيرة !

قال سندباد :

لم يكد " باقر " يلفظ اسم " شهبندر " حتى طار عقلي من رأسي؛ إذا اعتقدت أن الرجل الذي أكله النسانيس هو أبي . . .

وتمنيت في تلك اللحظة لو أنَّ أمواج البحر قذفتنْا إلى جزيرة النسانيس، لأطأ بقدميَّ الأرض التي عاش فيها أبي آخر أيام حياته . . .

وكان الشيخ، وباقر، وسائر زملائنا في المركب، يحاولون تهدئتي فلا أهدأ؛ إذ كنت كالمجنون من شدة ما نالني من الغم . . .

ثم حدث شيء مفاجئ، فردَّني إلى وعيي، وصرفني عن كل ما كنت أفكر فيه، وصرف أصحابي جميعًا عني ليشتغلوا بأمر أنفسهم؛ فقد غامت السماء فجأةً وهبط مطر غزير، ثم برق البرق ورعد الرعد وأظلمت الدنيا وارتفع الموج عاليًا كالجبال: فمال المركب بنا ثم اعتدل، وأخذت الأمواج تتقاذفه صاعدًا وهابطًا ومائلًا ومعتدلًا، ونحن فوقه كحبات القمح في الغربال، لا نكاد نمسك أنفسنا أو نثبت في موضع . . .

وصاح الشيخ : يا حفيظ يا رب ! هذا شيء لم أر مثله في حياتي!

فسمعت باقرًا يقول : لقد حدث لنا مثل هذا حين انكسر مركبنا بالقرب من جزيرة النسانيس!

وانقضَّت هذه الكلمة على رءوس أصحابنا جميعًا مثل انقضاض الصاعقة، فصاحوا في نفس واحد : جزيرة النسانيس!

ومضت لحظة صمت، والمركب يصعد بنا ثم يهبط، ويميل ثم يعتدل؛ ثم ارتفعت موجة عاتية، فانصبَّت فوق رؤوسنا بقوة، فغرقنا في لُجَّتها؛ فلما فتحتُ عينيَّ بعد لحظة لم أجد المركب تحتي ولم أجد أصحابي، فقد انقلب المركب وقذفنا جميعًا إلى القاع، فأخذتُ أضرب الماء بيديَّ ورجليَّ لأنجو من الغرق، ولكن كل ضربة أضربها كانت تغوص بي تحت الماء؛ فأيقنتُ أن آخرتي قد حانت؛ ولكني لم ألبث أن شعرت بيد تجذبني، فانجذبتُ بلا إرادة، كأنني سمكة في صنَّار صياد، وأغمضتُ عينيَّ مستسلمًا لقضاء الله . . .

وكانت اليد التي امتدت إليَّ هي يد صديقي أبي الإسعاد؛ ولكني لم أعرفه إلا حين بلغ بي الشاطئ سباحةً؛ فلما عرفته شكرته، ثم استدرت نحو البحر لأعرف أين بقية أصحابنا؛ ولكن الأمواج المتدافعة سترتهم عن عيوننا فلم أعرف أيُّهم نجا وأيهُّم ابتلعه البحر؛ فوقفتُ صامتًا حزينًا لا أكاد أجمع شتات فكري . . .

ولحظ أبو الإسعاد صمتي، فقال لي: عُد إلى نفسك يا سندباد، وتعال نفكر في أمرنا، فإننا لا ندري على أي أرض قذفْتنا الأمواج، ومن واجبنا أن نتدبَّر موقفنا ونعرف أين نحن الآن ! فقلت : ألم تسمع حديث باقر ؟ أظننا الآن في جزيرة النسانيس!

صاح أبو الإسعاد وهو يتلفت حواليه مرعوبًا : جزيرة النسانيس؟

وسمعنا في تلك اللحظة وقع أقدام وراءنا فالتصق بي أبو الإسعاد وهو يقول دون أن ينظر وراءه : جاءوا!

فنظرت إلى الوراء، ولكنى لم أر النسانيس الذين كان يصفهم باقر، بل رأيت باقرًا نفسه، فأسرعت إليه صائحًا : باقر!

فوضع أصبعه على فمه وقال هامسًا : صَهْ، لا أريد أن يسمعونا ! ثم أشار إلينا لنتبعه، فتبعناه صامتين ونحن نتلفتُ حوالينا، وقلوبنا تدق بعنف . . .

على أني لم أكن خائفًا في تلك اللحظة، ولم أكن مطمئنًّا؛ بل كنت في حالة بين الخوف والاطمئنان؛ فقد تذكرتُ وقتئذ أنني أمشي على الأرض التي مشى عليها أبى من قبل، والتي يعيش فيها القتلة الذين أكلوا لحمه وبعثروا عظامه؛ فامتلأ قلبي بالرغبة في الانتقام!

ولم يزل باقر يمشي ونحن نتبعه، حتى بلغ بنا جانبًا مستويًا من الشاطئ، فنظر يمينًا، ثم نظر شمالًا، ثم جلس ودعانا إلى الجلوس، وقال لنا : من هذا المكان المستوى لمحت المركب الذي أنقذني من جزيرة النسانيس، ولم أكن أظن أن المقادير ترميني إليها مرةً أخرى!

ولم يكن في يقيننا إلى هذه اللحظة أننا في جزيرة النسانيس، وإنما كنا نظن ظنًّا؛ فلما قال باقر كلمته عرفنا معرفة اليقين أيَّ خطر يتهددنا؛ ونظرت إلى أبي الإسعاد فرأيت وجهه أصفر كوجوه الموتى . . .

وعاد باقر يقول : خير لنا أن نلجأ إلى مكان نختبئ فيه، لندبر أمرنا ونحتال للخلاص، قبل أن يرانا النسانيس؛ أرى أن نذهب إلى تلك المغارة؛ فإن النسانيس لا يدخلونها . . .

ومشينا وراء باقر حتى وصلنا إلى المغارة؛ فدخل ودخلنا وراءه؛ فلما سترنا ظلام المغارة؛ جلس باقر ودعانا إلى الجلوس معه؛ أما أبو الإسعاد فجلس، وأما أنا فأحسست في نفسي رغبةً

شديدةً في الذهاب إلى آخر المغارة، لعلي أجد هنالك بعض آثار أبي؛ ولحظ باقر ترددي، فقال لي بماذا تحدِّث نفسك يا سندباد ؟

قلت : أريد أن أصل إلى الباب الآخر فأرى ماذا هنالك . . .

فصاح بي : أنت مجنون ! أجلس !

ثم جذبني من ذارعي فأجلسني، واستمر يقول : إنك إذا خرجت في نور النهار وقعت عليك عيون النسانيس، فيقتلونك كما قتلوا شهبندر !

فهاجتني هذه الكلمة، وأفلتُّ من يده مندفعًا إلى داخل المغارة؛ فجرى أبو الإسعاد ورائي وهو يقول : انتظر، لا تذهب وحدك !

ولكني لم أنتظر، فاستمر يجري ورائي ليدركني، أو ليمسكني؛ أما باقر فظل جالسًا حيث كان، ولم يرض أن يخاطر بروحه . .

ولم يلبث أبو الإسعاد أن أدركني، فوضع يده على كتفي قائلًا : أليس من الخير أن نعود إلى مكاننا ولا نرمي بأنفسنا إلى الهلاك ؟!

قلت مغتاظًا : عُد إن شئت، أما أنا فلا بد أن أذهب !

فرفع يده عن كتفي وهو يقول : إذن فلن تذهب وحدك !

ثم مشى ومشيت إلى جانبه صامتين، لا يتحّدث إليَّ ولا أتحدث إليه؛ فقد كان كل منا مشحون الرأس بخواطر وأفكار تمنعه من الكلام؛ أما أنا فكنت مشحونًا بالرغبة في الانتقام من قاتلي أبي، ولومُتُّ في سبيل ذلك؛ وأما أبو الإسعاد فلعله كان مشحون القلب والعقل بالمخاوف، فلولا عطفه ومروءته وحرصه عليَّ لما صحبني في هذه المخاطرة الجريئة . . .

وفجأة صاح أبو الإسعاد: قف لا تتقدم خطوة واحدة !

ثم سقط إلى جانبي وهو يصرخ : آه !

فوقف شعر رأسي وتسمَّرت رجلاي في الأرض، واحتبس صوتي في حلقى لحظة، ثم قلت في صوت خافت : ماذا جرى يا أبا الإسعاد ؟

قال : لا شيء، ولكنى عثرتُ فوقعت فالتَوَت قدمي!

فعاد إليَّ بعض الاطمئنان، وهممت أن أخطو إليه لأنهضه، ولكني لم أتبيَّن مكانه في الظلام، فقلت له: أرفع صوتك لأهتدي إليك !

قال هامسًا : لا أرفع صوتي ولا ترفع صوتك، فإني أخاف أن يسمعونا؛ فقد رأيت ظلالهم تتحرك قريبًا منَّا قبل أن أسقط !

قلت منكرًا : رأيت ظلالهم في هذا الظلام ؟

قال : صه، ولا كلمة !

وكنتُ قد اهتديتُ إلى مكانه بصوته، فخطوتُ إليه حتى صرتُ إلى جانبه، فوضعت يدي على كتفه وأنا أقول هامسًا : ألا تقف ؟

قال : لا أستطيع يا سندباد، وأظن أنَّ في ساقي كسرًا!

قلت : اعتمد عليَّ، فإني لا أحب أن أتركك هنا وحدك !

قال : بل تتركني وتعود إلى باقر لتخبره، ثم . . . . .

وانقطع عن الكلام فجأة، وضغطت أصابعه على ذراعي، ثم همس : أرى ظلالهم قد عادت تتحرك !

فخفق قلبي خفقًا، ودرتُ بعينيَّ فيما حولي؛ ولكني لم أر شيئًا؛ إذ كان الظلام حالكًا؛ فأيقنت أن صاحبي لم ير إلا أوهامه، وقلت ساخرًا : ظلال في الظلام؟ كيف يكون ذلك يا أبا الإسعاد !

وضحكت ولكن يده امتدت إلى فمي لتحبس صوتي فسكتُّ مكرهًا؛ ودرت بعينيَّ فيما حولي أحاول أن أنفذ بهما إلى ما وراء الظلام؛ فمال أبو الإسعاد على أذني هامسًا : مِلْ إلى اليمين درجةً ثم انظر؛ ألست ترى شعاعًا من النور؟ فإني أرى ظلالًا تتحرك في ذلك الشعاع . . .

فملتُ إلى اليمين ونظرت كما أشار، فإذا دائرة مضيئة على حائط المغارة، تشبه الدينار؛ فقلت هامسًا : من أين هذا الضوء ؟

وقبل أن أسمع جواب أبي الإسعاد رأيت ظلالًا تتعاقب على تلك الدائرة المضيئة : تظهر ثم تختفى؛ فأيقنتُ أن أشباحًا تتحرك وراء الثقب المستدير الذي ينفذ منه ذلك الضوء، لا يفصلها عنا إلا قصبات أو أمتار؛ فلم أر من الحكمة أن أجازف بحياتي في تلك اللحظة . . .

وظللنا جالسين ساعة، ونحن نرقب الدائرة المضيئة والظلال التي تتحرك فيها؛ ولكن الضوء لم يلبث أن اختفى، كأنما انسَّد الثقب الذي كان ينفذ منه، فقال أبو الإسعاد : عجبًا ! كيف انتهى النهار هكذا سريعًا ولم يمض علينا منذ دخلنا المغارة إلا ساعة وبعض ساعة ؟

قلت: لعل النهار قصير في هذه المنطقة، فقد سمعت أن الشمس في بعض المناطق لا تُشرق على الناس إلا ساعةً واحدةً ثم تغيب . . .

فضحك أبو الإسعاد ساخرًا وقال لي: من أين لك هذه المعارف العظيمة يا سندباد؟

فغاظني ضحكه وقلت : نعم، وفى بعض المناطق تشرق الشمس على الناس سته أشهر، وتغيب ستة أشهرٍ أخرى . . .

فكفَّ عن الضحك وقال : ولكنَّ ذلك لا يكون يا بنيَّ إلا في المناطق القطبية، ونحن بالقرب من خط الاستواء، حيث يتساوى الليل والنهار !

قلتُ ضاحكًا :لعل النسانيس قد نقلوا قطعةً من القطب إلى خط الاستواء !

ثم هببت واقفًا وقلت : إنني ذاهب لأرى !

فشدَّني من ذارعي وقال : لا تكن أحمقَ يا سندباد؛ فإنَّ الشر ينتظرك هنالك، والويل لك إذا ظهرتَ لهم؛ فإني لأظن أن النهار لم يزل مضيئًا وراء المغارة وإن لم تره أعيننا !

فشددتُ ذراعي لأتخلص منه وقلت : دعني أذهب إليهم؛ فإمَّا انتقمتُ منهم لأبي وإمَّا ألحقوني به؛ فتستريح نفسي على الحالين !

قال : إذن فلابد أن أصحبك. دعني أتوكأ عليك . . .

ثم اعتمد على كتفي ومشى إلى جانبي يحجل برجل واحدة، فقلت له ضاحكًا: إنك – يا أبا الإسعاد– تمشي كالنسانيس على رجلٍ واحدة، فلا تخش أن يروك، فسيظنونك واحدًا منهم !

ثم قهقهت قهقهةً عالية، تردد صداها بين جدران المغارة، فلم ألبث أن سمعتُ همهمةً وأصواتًا؛ فأيقنتُ أن النسانيس قد سمعوني وتلك أصواتهم، فذابت شجاعتي وامتلأ قلبي رعبًا، فلم أستطع أن أخطو خطوةً واحدةً إلى الأمام . .

فقال لي أبو الإسعاد ساخرًا : لماذا وقفت؟ اذهب لتنتقم لأبيك فأثارتني سخريته واندفعت وحدي خارجًا !

وبلغتُ آخر المغارة في خطوتين؛ فما كان أشدَّ دهشتي إذ رأيت نور النهار وراءها ضاحيًا، وكنت أظن الشمس قد غربت؛ فترددت لحظةً، ثم خطوت خطوةً أخرى فخرجت من المغارة إلى الفضاء الفسيح . . .

ورأيت المكان خاليًا وليس به أحد؛ فعاد إليَّ بعض الاطمئنان، ولكني ظللتُ واقفًا في مكاني، لا أجرؤ على خطوة إلى الأمام ولا خطوة إلى الوراء . . .

في هذا المكان المشئوم من هذه الجزيرة الملعونة، قتل النسانيس أبى شهبندر وأكلوا لحمه ورموا عظامه !